الجاسوسة السمراء

القارب يمخر العباب في سكون الغلس فيترك وراءه زبدا مرغيا والجو يوشك ان يكون رائقا لولا ان قطعا منفصلة من الضباب الكثيف كانت تصاعد من جهة الغرب لتسير في بطء وتثاقل كأنها خشيت صدمة الاشعة الصفراء الباهتة التي بدأت تسامتها من ناحية المشرق . ولكن هـذا الحاجز المتقطع من الضباب كان يتماسك قرب الافق ليسدل سجفا سميكة على ناحية شاسعة مـن عرض البحر . كان معظم النوتية لا يزالون في غرفة النوم الفسيحة التي تنتشر علـى بساطها فرش شعثاء ، ولم يكن في مقدم القـارب الا ربـان اصلع مستطيل القـامة كث الشارب يدير بيده اليمنى مقودا مقوسا ويقبض بالاخرى منظارا يصوبه لجهة الافق الغربي . . وكان يتقلب ذات اليمين وذات اليسار كأنه يحاول ان يتخذ وضعا يساعده على اختراق حواجز الضباب بمجهره الاسود . . ثم طرق سمعه صفير اعقبته بعد فترة وجيزة نقرات فانبرى القـوم يجرون خطاهم جرا كأن الكرى قـد امسك بمعاقد الجفون . . ها هو القارب قد وصل الى خط الافق وانعطف الى اليمين ليسير مسامتا للشط في جولة الصباح التفقدية وها هو الضباب المتبلل يلفه لفا في حلوكة قارسة يخترقهـا فانوس الربان الذي يشع من زجاجته نور ذابل، غير ان الربان حرك دولاب السفينة فانعرجت هـذه لتخرج مـن منطقـة الظلام وظهر الماء الازرق ساكن الاديم يتموج في ارتخاء ولكن قرص الشمس الفاتر لم يكن يرسل الا اشعة متذبذبة تتعثر في ركام الضباب، وكانت انغام الموج الموسيقية تتجاوب مـع

ما يحدثه اصطفاق الماء والهواء امام حيزوم السفينة غير أن اصوات النوتية كانت تتعالى بين الفينة والاخرى فتغطي هدير الموج ولكن ما هذا ؟ انه صوت آدمي خافت يتصاعد من الاثباج في رنات متتابعات كأنها رنات استنجاد ، وما لبث الصوت أن اتضحت نبراته في صيحات استغاثة تصل متقطعة الى آذان النوتية فاندفع الربان اندفاعا آليا وامر الملاحين في رطانة انجليزية ان يقذفوا بحبل ولكن تماوج الماء كان يرد الحبل الى مصدره فانبرى الربان في اقل من اللمح وانسلخ من سرواله الرقيق المستطيل ثم لف حول خصره طرف الحبل وزج بنفسه بين امواج طفق يخرقها بساعده المفتول والنوتية قابضون على طرف الحبل الآخر حتى وصل الى المكان الذي شوهدت فيه الجثة وهي تضطرب وتغرغر فلم يجد لها اثرا . . ولكن الفقاعات التي كانت تحدثها فوق سطح الماء ذبذبة التنفس انذرته بان الشخص قد غرق فلم يلبث الربان ان غاب بدوره تحت الماء ليرجع ـ بعد ثوان حسبها النوتية ساعات لفرط التأثر ـ وهو يمسك بيمناه جثة هامدة . . وما كاد الرجل يصل الى حافة المركب حتى نزل احد النوتية ليتلقف جثة فتاة سمراء البشرة سوداء الشعر قد الصق الماء ثيابها الشفافة بجسمها البض ولولا نفس يتصاعد في خفوت لظن القوم المشرئبون في الحاف وتلهف ان المسكينة قد ماتت . . مددت الفتاة فوق مقعد مستطيل من الخشب ثم انكب اثنان من النوتية هذا يحرك لسانها ويجذبه جذبا خفيفا وذلك يلصق بخيشومها زجاجة صغيرة امتلأت الى النصف بمائع اصفر ثم طفقا يحركان اطرافها بانتظام بعد ان قلباها على صدرها فتقايئت الماء وفتحت عينيها منتفضة انتفاض المقرور . ! وكان الربان الذي انقذها قد تحول في هذه الفترة الى غرفته الخاصة ليستبدل ثيابه المبتلة بقميص وسروال ابيضين تعلوهما صدرية زرقاء ولم يكد يصدق

لحظه المشدوه عندما رأى الفتاة ترنو الى الحضور بعينيها النجلاوين دون ان تعي شيئا لانه حسبها ماتت او في طور الاحتضار . ثم دنا الربان فاحتمل الجسد النحيل المكتنز في خفة والفتاة لا تنبس ببنت شفة حتى ادخلها الى غرفته ففتح خزانة استخرج من بين رفوفها ثيابا ناولها اياها وانعطف الى الباب . ولم تكد الفادة تشعر بالوحدة حتى جالت بنظرها في انحاء الغرفة فارتد طرفها عليلا يرنو بفتور الى ما حوله ويداها تتحسسان في اندهاش ما عليها من ثياب كانها غسيل نفشه الماء النافذ بين لحمته وسداه وبعد لحظة شعرت بوجود الثياب الجديدة في متناول يديها فمدتهما في حركة آلية لتستبدل بالمبلل الجاف وكانت ترى ولا تنظر وتسمع ولا تعي وبدأت تحس بدفء ارجع اليها بصيصا من ذاكرتها التي اذهلها الخطر ، وفجأة ارتعشت ارتعاشة المحموم وسرى في لحظها بريق فاحمرت وجنتاها كانها شعرت بفتة بوضعها الغريب بين رجال اجانب او كأن طيف حبيب الم بمخيلتها المكدودة ! ولكن ملامح هذا الوجه اليانع الجمال ما لبثت ان اكفهرت ومر بلحظ الفتاة التي انتصبت في رشاقة بريق معتلج !!.

فرار تحت جنح الظلام

نقرت الفتـــاة باب الغرفـــة الموصـــدة فانفتح ، وظهرت في اطاره قامة الربان الانجليزي العملاق الذي ظـــل ينتظر خلف الباب وهو على أحر من الجمر شوقا الى إستكناه هوية

الفتاة التي انقذها من مخالب الموت .. فما ان تحسس بسمعه المرهف همس الاقدام الخافية حتى انتصب ينتظر الاذن بالدخول ... وقع نظره على قد اهيف يستطيل في نحول رشيق ووجه مستدير يجلل سمرته الوضاءة سواد الشعر المتهدل ... كانت الفتاة تسير في تثاقل وهي تكاد تجر خطاها جرا لتهدج اعصابها وارتخاء مفاصلها ووهن اطرافها التي اضناها مغالبة الموج وجمدتها برودة الماء القارصة ، ولكن ما ان وصلت الى مصراعي الباب حتى انعكست على محياها اشعة الشمس فسرى في جسدها البض تيار دافيء سكنت له جوارحها المقرورة .. وقد فاجأها هذا النور المنعش فبهر لحظها الذي ارتعشت منه الاهداب ارتعاش الطفل الغرير . بقي الربان جامدا في مكانه وقد راعه هذا الجمال المتفتح وتلك القسمات المتناسقة وذلك الخصر الدقيق وتلك الحيوية الوادعة التي تتدفق من كيان الفتاة ، ولكن ملامح الجارية الكاعب كانت تمتقع بين الفينة والاخرى كان طيفا ملاحقا يتلاوح لها شبحه فيطفيء ما تشعشع به لواحظها من ايماض ولم تكن هذه الارتسامات المتناقضة التي تتداول المحيا اليانع الا عنوانا عن الاحساسات العنيفة التي تعتلج في الجوانح ، فازداد الربان الموله اشفاقا ورغبة في الاستطلاع ! « ان لهذه الفتاة لسرا وان وجودها بين مخالب الامواج في غبش الغلس ليس بالشيء المعتاد فهل تحت السر ماساة غرامية ؟ وهل قصدت الفتاة الى الانتحار بعد ما فجعت فيمن تحب ؟ ام هنالك مؤامرة كادت تؤدي بحياة الفتاة المسكينة لولا ... » وهنا احمرت وجنتا الربان سرورا وخيلاء ؟ اليس هو الذي انقذ الفتاة ؟ لا شك انها تكن له من عواطف الاعجاب والامتنان قدر ما يكن لها هو من الحب الذي تلجلج بين اضلاعه في اللحظة الاولى منذ رنا اليها وهي متهالكة بين ذراعيه خلال الامواج في غير وعي ولا شعور .. يا لروعة

الجمال . . ان هذا الرجل يتلعثم – وهو الربان المغوار – امام روعة المفاتن الرائحة من اجزاء هذا الاهاب الفض !.

دعاها في صوت مرتبك الى الخروج لانتشاق هواء الصباح العليل بعد ان قدم اليها ما تقي به قدميها من برودة البساط المبلل وقد توردت وجنتاها لهذه الدعوة التي لم تستطع رفضها لصدورها من رجل تدين له بحياتها ، وزادها هذا الخفر جمالا فوق جمال كما ضاعف هيام العملاق الذي راى في هذا التمنع الخفي دليل الطهر والصون وان الحياء المقرون بالعفاف لمن العوامل التي تزيد الانوثة جاذبية تجعلها مثارا للحب والاجلال !.

جلس الاثنان قرب الحاجز المشرف على البحر فاضطربت الفتاة عندما وقع نظرها على امواج تصطخب وسرى الاضطراب من بنانها الرقيق الناعم الى الكأس الطافح بعصير الليمون وكان لسان الربان يتلجلج بين شفتيه كأنه يحاول ان يقول شيئا فيعوزه البيان ، وكأن الفتاة شعرت بشيء من ذلك فباداته هي بالشكر فاجاب متلعثما : ارجو ان تكون مولاتي قد استراحت. ولكن لم تكن تفهمه ولا هو كان يفهمها لانه انجليزي وهي اسبانية ولولا اشارات الايدي وارتسامات الملامح لما تفاهما . . كان تبادل هذه العبارات الاولى كالمصل المنعش اطلق لسان الرجل من عقاله ففاض بحديث لو كانت الفتاة تحذق الانجليزية لحكمت بقربه من الهذيان . . ولكن ايماض عيني الرجل وارتماضه كانا ابلغ تعبير لما تصطلي به حناياه من هيام وكأن الفتاة احست بخطورة الموقف فتجرعت الكأس وحاولت انهاء الحديث فوقفت في رصانة باسمة مشيرة الى رفيقها بانها في حاجة الى الاستراحة فقام هذا بدوره وسار في اعقابها الى ان ادخلها الى صالون متصل بغرفته الخاصة واذا فراش وثير قد ارتجل في الحين

وأذا الدفء ينبعث من مدخنة بلورية تتقد في اتونها قطع من خشب.. ولم يكد الرجل يوصد وراءه البـات حتى شعرت فتاتنا بالطمأنينة وفتحت سروالها لتجس في طيـات تبانها المبلل شيئا كان يخشخش تحت ملمسها اللدن فارتد طرفها وقد أومض ببصيص من الاطمئنان .. ثم اطرقت واسترسلت في تفكير دل على عمقه تجعدات اسرتها . طفقت مطرقة نحوا من ساعة ثم اندست تحت غطاء الصوف واستسلمت للكرى في سبات مطبق لم ينفرج الا عند الاصيل ، وكـان الربان يتحسس بسمعه من خصاص الباب بين حين وآخر فيرتد عندما تصل الى اذنيه انفاس هادئة منتظمة تدل على ان الفتاة لا تزال مغرقة في النوم .. وقـد عز عليـه ان يوقظها وهي المضناة المكدودة واوشكت الشمس على المغيب والفتاة لا تزال هاجعة .. ثم شعر بحركة اقدامها داخل الغرفة فنقر الباب نقرا خفيفا واذا صوت رقيق يجيب في رنة متناومة . دخل الربان وفي اعقابه نوتي يحمل ابريقا من الشاي وقطعا مـن الكعك فأشارت الفتاة الى الربان بالجلوس .. ومـا لبث هذا ان نحنح في صورة يتجلى عليها اثر الافتعال واذا بنوتي يميل سنه الى الشيخوخة يستأذن ليدخـل ... فبادره الربان بالاذن وهو يختلس النظر الى الفتاة ولم يكد الرجلان يتفاهمان بالانجليزية حتى التفت الشيخ الى الفتاة وخاطبها بالاسبانية مستفسرا عن حالها وكأنـه هم بالاستفسار عن شيء آخر فتردد فترة وجيزة ثم تحمس ليسالها في ارتباك عن سبب وجودها بين امواج البحر هذا الصباح .. فسرى في عيني الفتاة بريق ينم عـن قلق ولكنها تماسكت واصطنعت الهدوء راجية تاخير الحديث عن هذا الامر الى فرصة اخرى لانها لا تزال تشعر بتوعك وكانت اعراض الحمى قد بدات تظهر على محياها الذي اصطبغت وجنتاه بلون قرمزي فاتن

فاكتفى الرجلان بهذا الجواب وخرجا بعد أن أوقدا قنديلا، ولم يفت الرجلين اضراب الفتاة عن اللحم الشهي الذي كان مقتطعا من فخذ خنزير ولكنهما حملا ذلك على توعك الفتاة . عادت هذه الى الفراش ولكن عينيها ظلتا مفتوحتين فأطفأت القنديل ابتغاء للظلمة التي يتصل في ديجورها حبل التفكير . . وبقيت على هذه الحال ساعات حتى هدأ حولها كل شيء فنفضت عنها الغطاء وقامت تتسلل في حذر الى الخارج وغاب شبحها خلال الظلام .

خفقـان اللقـاء

كان المركب راسيا قرب رصيف يأوي اليه في منتصف الليل بعد أن ينتهي دوره في حراسة مدخل المرسى .. وكان الجو باردا والحلوكة قد كست المدينة الهاجعة بسربال أسود كثيف والهلال المقوس الرقيق يرسل أشعة باهتة تتبدد في ركام الضباب ، ولكن هدير الموج في ارتطامه بالصخور كان يتعالى بين الفينة والأخرى ليغطي أنغاما مشجية تنبعث من أكواخ الشاطىء الخشبية ... ثم ساد السكون وانقطع كل صوت الا صوت اقدام تسترق الخطى في جوف الظلام .. وفجأة اخترق شعاع الهلال حاجز الضباب الذي كان رقيقا من جهة البر فتوقفت الخطى وانبطح ظل نحيل فوق الأديم بينما تلاوحت أشباح القوارب وهي تتمايل على سطح الماء ، وكانت رقصة هذه الاشباح أشبه بوقعات الأساطير حيث تتحرك أرداف الشياطين فوق مرآة الانهار في الليل البهيج ..

كان مشهدا رهيبا حقا ومع ذلك فان ذلك الطيف المهزول طفق يتلمس مواقع خطاه ينبطح تارة وينتصب اخرى تبعا لأفول الأشعة وبزوغها ، ولكن انبطاحه لا يخفي عن الانظار ـ لو كانت هنالك انظار ـ القامة المترامية الهيفاء التي تتسلل محاذرة عيون الرقباء . عاد الطيف الى السرى في هرولة متزنة تنم عن رباطة جأش وقوة فؤاد .. ولكنه توقف بغتة عندما ردد صدى الليل وقع خطو كانها حوافر تنقر الارض بحذاء من حديد . انحاز الطيف الى زاوية منعزلة وعلق انفاسه مخافة ان تكشف نامتها عن وجوده وانتظر ما يكون . ومرت لحظة خالها ساعات واذا بعملاق يذرع ارض الرصيف ذهابا وجيئة كانه حارس ليل وبيده فانوس يتلجلج داخله نور متناعس .. ثم تثاقلت الخطوات وتباطأت كأن العملاق يغالب حبل الكرى الذي اوشك ان يمتد الى عينيه من فرط السكر ، وكانت حركة يسراه وهي تتلقف زجاجة لتفرغها في الحلقوم الجاف تشف عن ارتعاش مقرور يحاول العملاق تهدئته بجرعات من الفول . وكانت فتاتنا السمراء التي تلمحنا طيفها الأهيف يتسلل في الظلام ـ تحدق بنظرها الثاقب في هذا الشبح المترنح فاذا هو شيخ واذا هو نفس ذلك الذي ترجم عنها للربان هذا الصباح .. وقد استغربت وجوده وهو اسباني اللهجة اشبيلي النبرات في مركب انجليزي بعرض ميناء طنجة التي تناهب حاميتها الانجليزية لصد ما ستشنه جيوش الريف من غارات تحريرية .. ولكنها تذكرت ان بالمدينة عددا من مرتزقة الاسبان فدار بخلدها انه منهم غير ان الفتاة طفقت تعصر ذاكرتها حيث خيل اليها ان هذا الوجه لم يكن غريبا عنها .. وفجأة انتفضت انتفاض المشدوه لأنها تلمحت في نظراته الخبيثة التي لم تبرح مخيلتها منذ الصباح ـ يهوديا شاهدته منذ شهر في مدينة القصر الكبير وهو ينادي بين الأزقة مستبيعا خلقان الثياب وجاهزات الاحذية ..!

سرت في جسدها البض رعشة عندما تخيلته احد اولئك الجواسيس الذين عبأهم الانجليز لمراقبة حركات القائد علي الريفي من بين اليهود الموريسكيين لعجزهم عن ايجاد عيون من ابناء البلاد الأباة ، وقد أومض لحظ الفتاة ببريق تم عن اغتباطها بهذا الاكتشاف ، وكان في مقدورها ان تردي الشيخ قتيلا بضربة من العصى المحددة التي صحبتها معها لدرء ما عسى ان يطرأ غير انها فضلت الانتظار ريثما تتحقق هوية الشيخ، وقد تعود الى المرسى ليلة اخرى لتنفيذ بعض ما اسند اليها في مأموريتها السرية الخطيرة فتفتنم الفرصة للاقتصاص من هذا النذل الذي آواه مواطنوها بين اظهرهم فاستغل ثقتهم الغريرة لتبييت المكيدة في الخفاء . ثم ابتسمت وهي تناجي نفسها المتوثبة وتشهد عناصر الطبيعة الوادعة ـ لتثأرن من جميع هؤلاء المتمغربين الخونة الأدنياء . وعاد الشيخ ادراجه فانسلت هي في رشاقة لتستأنف سراها في جنح الدجى ، وكانت تتجه قدما في غير حيرة ولا تردد كأنها تقصد مكانا معينا .. وبعد ان قطعت مسافة طويلة وصلت الى باب ضخم الحنايا ولجته لتصعد درجا من الحجر الصلد العريض ثم انعطفت الى منعرجات لتصل الى درب متضايق الجدران واذا بها امام باب وطيء ولو امكنك ان تراها او تحاذيها في ثنايا هذا الظلام الدامس للاحظت الحمرة القانية تنبثق فجأة لتصبغ وجنتيها المعتلجتين ولأحسست وجيب فؤادها وهو يندفع في خفقانه الحثيث ، ثم نقرت الباب وانتظرت مليا واذا قامة مكتنزة يرتسم شبحها في الاطار الخشبي .. وكانت لحظة حيرة اندفع بعدها الخطيبان في عناق طويل .

*

.. افاق الخطيبان من عناقهما الطويل على نقر اقدام تسير متباطئة في الشارع المعارض لهـــذا الدرب الضيق المتماسك الجدران وقد تســارع خفقــان القلبين المتحابين واحمرت الاطراف بحمى الهيام ، وكان اضطراب ابراهيم لا يقل عن اضطراب خطيبته بين ذراعيه المفتولتين . وكيف لا يضطربان وقد فرق بينهما حصار ضربه الانجليز منذ شهور على الأسوار الداخلية للمدينة فطفقوا يخبطون ويقتلون كـل من اشتبه عليهم من المغاربة ولولا تنكر ابراهيم في زي اجنبي واجتنابه المواقف المريبة لكان في عداد الاسرى .. وقد فاجأه الجنود ذات ليلة وهو على الفراش فقلبوا اثاث الدار راسا على عقب بعد أن استنطقوه استنطاقا دقيقا .. فكان يجيب في لهجة انجليزية صميمة حذقها عندما كان يرافق اباه فـي متجره الضخم بمنشستر وكـــان متجلببا اثنـاء التفتيش وفؤاده يكاد ينقلع من بين جوانحه لأن احد صناديق المطبخ كان يحتوي على اشياء لو عثروا عليها لأعدموه .. ولكن وجود يطو خطيبته السمراء اليانعة بين ذراعيه انساه هذه الاخطار التي تكبدها في سبيل واجب مقدس وكاد ينسيه مسهـك الهواء المعكوس لولا قشعريرة انتفض بها الجسمان المتعانقان. دخل الخطيبان الى الدار بعد أن اقفلا الباب وراءهما . وكانا يتحسسان مواقع الخطر باقدام ما زالت مرتبكة من تاثير اللقاء واذا نور ذابل ينبعث من غرفة مفتحة المصراعين .. وكانت أيديهما لا تزال متشابكة اشتباك التيارين الموجب والسالب .!

كانت الغرفة متضايقة الأرجاء يتوسطها سرير من ليف قد وضع على رف بجانبه قنديل ترتعش فتيلته لجريان الهواء . . . جلست يطو على حافة الفراش وبقي ابراهيم يرنو في شوق الى هذا الجسم الفض النحيل وهو لا يكاد يصدق عينيه . . وكانت وجنتا الفتاة قانستين ونظرها مسبلا حياء وخفرا ولكنها ظلت تسترق النظرات الى هذا الوجه الريان الذي مال اليها في تلهف يمازجه وقار ، وطفقا على هذه الحال وهما كالمأخوذين يحسبان نفسهما في حلم لأن موقفهما هذا كان يتراءى لمخيلتهما المكدودة احلى من ان يكون واقعيا وكان نور الفانوس انقلب رقيبا فحبس عواطفهما عن الانطلاق بعد أن استسلما لداعي الهوى خلال الظلام . ! كانت الخواطر تتزاحم في فكريهما ولكن رهبة الموقف عقدت اللسانين . . ولشدة احمرار وجنتي الفتاة ظنها ابراهيم محمومة ولكنها اخذت تسترجع لونها الطبيعي شيئا فشيئا ، واخيرا قطع ابراهيم هذا السكون بصوت متعلثم ونبرات متهدجة كانت ابلغ عنوان عن شديد الانفعال : « انها لمفاجأة سارة يا حبيبتي يطو . ! لقد كدت أموت شوقا اليك! وكان هذا الحصار المحكم وذلك الاضطهاد العنيف يخيلان الي انني قد الفظ نفسي الأخير بعيدا عنك . . ولولا اهتمامي بالاستعداد لتنفيذ ما اتيت الى هذه المدينة من اجله واستغراقي في تتبع العدو وتقدير قوته ودرس مواطن الضعف في معاقله لخاطرت بنفسي للالتحاق بك . وكنت أواصل ليلي بنهاري تجسسا وتنقيبا فتأخذني الغبطة وتهزني الخيلاء عندما أشعر بأنني أبذل في سبيل هذا الوطن الممزق ما استحق به يدك الكريمة وحبك الغالي ، وها انت قد أتيت في وقت كان طيفك الجميل يتراءى لعيني المسهدة فيحرمها النوم ، وما اكثر ما بات الأرق يحزني الى الفجر . . . ولكن ها انت أمامي لحما ودما ، فما اسعد

قلبا خفق للمرة الاولى من اجلك .. وهام بجمالك واستبسالك ! » . وكانت يطو تنصت والعبرة توشك أن تخنقها من فرط التأثر ولكنها تمالكت وظهر الجد على ملامحها وابرق لحظها بومضة الاتزان فازداد ابراهيم هياما . ثم خاطبت حبيبها بلهجة ريفية فخمة اشع من نبرتها النفوذ قائلة : « انت تعلم يا ابراهيم ما يكنه لك هذا الفؤاد الذي الهب حناياه فراق لم اطق عليه صبرا .. ولكنه الواجب، واجب تحرير هذه القطعة من الوطن المقدس التي ما زالت هي وغيرها من جواهر المغرب الثمينة ترسف في قبضة الانجليز والأسبان. فلنكف عن هذا التناجي فالوقت وقت عمل، وما كنت لانقاد الى عواطفي وقائدنا ابو الحسن الباسل في انتظار اشارة تؤذن فيها بالوقت المناسب للهجوم وقد تركت فيالق الجيش المغربي منتشرة في اغوار السهل الساحلي تعد العدة للاغارة .. والكل يتحرق لتحرير مرسى طنجة البائسة بعد ان تحررت شقيقتها المعمورة (المهدية) منذ ثلاثة اعوام (١٠٩٢ هـ) . آه ، لقد قاست طنجة المسكينة مرائر الاحتلال طوال اثنتين وعشرين سنة . وكنت لم أولد بعد عندما جهز ملك البرتغال خوان السادس اخته الى شارل الثاني ملك الانجليز بمفاتيح المدينة فانتقلت هذه من حكم الأول الى حكم الثاني ... يا لها من وقاحة !! هل بلغ بنا الذل هذا المبلغ حتى صار الاجانب يتهادون جواهرنا الغالية ونحن نتفرج .! حيا الله المولى اسماعيل ! .. لقد اتحدت كلمتنا منذ ان تربع على اريكة العرش والتفت جماهيرنا حول ملك شعبي عادل ابي اقسم ليصونن هذا الكيان الممزق ولينظمن هذا العقد الذي انتثرت جواهره بين أيد اثيمة ... ابراهيم لقد حانت الساعة الكبرى ! وانني قد نذرت لأحرمن فؤادي

طعم الهوى ما دامت هذه الدرر في قبضة الانجليز والاسبان !! » .

وكان ابراهيم ينصت وقد وقف شعره من التأثر وانحدرت على وجنتيه دمعتان سخينتان .

.. لم تكد الفتاة تلفظ آخر كلمة بصوتها المتهدج حتى انحازت الى جهة الجدران ودست يديها داخـل السروال لتخرج ورقة مكتوبة بخط غليظ ناولتها ابراهيم الذي ما كاد يلمح السطور الأولى حتى ظهرت معالم الجد على محياه ... وكانت الفتاة تنظر اليه في حنو وقلبها يرقص منتظرة أن يفضي اليها خطيبها برأيه لترى ما يكون ، ثم رفع ابراهيم راسه وعيناه سابحتان في الفضاء كأنهما تستعرضان تصميم المدينة وتحددان مواقع الضعف والمنافذ الواهنة التي يتيسر الانسلال منها الى الخارج ، ثم ابرقت العينان بوميض ما لبث أن انطفأ وتراءت معالم الحيرة على هذا المحيا الذي اكلحه ارق موصول. خف في الحين الى سلة تحت السرير فأخرج منها خرزا والتفت الى يطو كأنه يريد ان يستفسرها غير انه تردد ترددا ما فتىء ان غالبه مخاطبا الفتاة قائلا :

« ولكن مفاجأة هذا اللقاء في جوف الليل قد اذهلتني يا طو (كان يداعب خطيبته باختزال اسمها) الى حد انني نسيت ان اسألك عن الكيفية التي وصلت بها الى المنزل فـي

ساعة متاخرة من الليل .. كان شعوري بقربك واطمئناني الى وجودك في غرفتي الوضيعة التي لم تكن أوسع ولا ازهر منها كاليوم .. قد انساني الاخطار التي تكونين قد تعرضت لها فيمحاولة اجتياز الحدود الفاصلة بين الجيشين.. اغفري لي هذه الأنانية يا طو .. انه الحب الذي يصم أذنيه عن الماضي والمستقبل ليشمل بالحاضر .. وكأني تحاشيت عن قصد أن أسألك لأن فكري لا يطيق أن يتصور ما يتعرض له شخصك العزيز في غمرة المغامرات » ..

ولكن الفتاة نظرت الى خطيبها الموله نظرة باردةاخترقت احشاءه وظهرت عليها آثار المغالبة والكبت فخاطبته بقولها : « كفى ! كفى يا ابراهيم ! لقد قلت لك بأن الوقت وقت عمل لا وقت تناج أو استعذار .. وعلينا أن نواصل السهر طوال هذا الليل لتدبير الخطة وتمكين جيش ابي الحسن من الدخول الى المدينة قبل أن تغيب شمس الغد . نعم شمس الغد ! تلك هي التعليمات التي احملها اليك من قائدنا البطل ، وقد كنت في غنى عن الاشارة الى الوسيلة التي وصلت بها اليك لولا اننا في حاجة الى استعراض كل الذرائع التي يمكننا أن نتصل بفضلها بطلائع الجيش لتمكينهم من البيانات والمعلومات التي ينتظرونها بفروغ الصبر ... ومن جملتها ما عانيته للوصول اليك .. لكن لعل هذه الطريق متعذرة لأنها غمرة بين اثباج الموج (وهنا لاحظت قشعريرة تسري في جسم ابراهيم وانتفاضات تهز كيانه يحاول عبثا أن يخفيها عن لحظ الفتاة) لقد بت ليلة البارحة امخر عباب الساحل عندما ودعت سيدي القائد الذي ابى الا أن يشيعني بنفسه من فرجة طبيعية منزوية على بعد مرحلتين من المدينة ، وكنت أتناوب على تجذيف المركب الصغير الذي كانت الامواج تتلاعب به في ظلمة الليل مع أحد النوتية ، وطفقنا نجذف في غير توان ولا

فتور الى الفجر فظهر فانوس مرسى طنجة وتراءى لنا في نفس الوقت مصباح يتأرجح نوره الذابل فوق الأمواج فعلمت ان هناك مركبا يجوب مياه الميناء لحراستها فنفخت في قنديلنا الباهت وواصلنا التجذيف متجهين نحو النور المترائي من بعيد .. وكانت لا تزال تفصلنا عن قارب الحراسة مسافة غير قصيرة ومع ذلك فقد قررت ان ازج بنفسي في الموج والتحق عوما بالساحل .. وكم حاول رفيقي النوتي المسكين ان يثنيني عن هذا العزم الذي وصفه بانه جنوني ، ولكنني بقيت مصممة اذ لم تبق لدي سوى هذه الوسيلة الخطيرة لمحاولة الوصول الى شاطىء طنجة ودون ان يفتضح امري، ولكن المسافة كانت طويلة حقا وغالبت الموج خلال ساعة كاملة خلتها اياما وكادت برودة الماء تجمد اطرافي واحسست بالعياء يعقد مفاصلي وبالمجهود الموصول يشنج اعصابي فحدثتني نفسي بالاستسلام للموج وانتجاع الراحة في احضانه ، ولكن صوت الواجب تعالى من أعماق نفسي فعدت الى مكافحة الموج وعاد الى مغالبتي حتى غمرني مرارا وايقنت ان لا فرار من القضاء وانحدرت دمعتان من عيني المعتلجتين لتمتزج ماوحتهما بملوحة الموج الى الأبد ... وكاد الحزن يفتت فؤادي خلال الأمواج لا على هذا الجسم الغض الذي سيصبح طعمة للأسماك بل على هذه الوثائق السرية التي كلفت بابلاغها اليك لنعمل معا على تنفيذها .. ثم اظلم حولي كل شيء وشعرت بالماء ينفذ الى حلقومي فيخنقني واحسست بفرغرة مؤلمة تهز كياني في اضطراب عنيف ثم ارتخت اطرافي وانهار جسمي في ظلمة المحيط في غيبوبة مطبقة .. ولشد ما كانت دهشتي عندما فتحت عيني فاذا انا ممدودة على خشبة تحدق بي وجوه غريبة ، وتحدق فيّ انظار مريبة ، والصبح قد اسفر والصباب قد انقشع ...! » ..

ولم تكد تنتهي حتى كان دمع الاعجاب والفرح ينحدر مدرارا على خد ابراهيم المعتلج بمزيد الهيام ، غير ان الفتاة كانت في شغل شاغل عن الانفعال وكانت المهمة المناطة بها قد أصبحت جزءا من كيانها وامتزجت بلحمها ودمها امتزاج المثل القديسة بنفس الصوفي المولع ! كانت تقوم وتجلس وتنام وتنهض وهاتف الوطن يسري في صماخها رنينا يذهلها عن كل شيء حتى عن حبيبها الذي كانت اشوق ما تكون الى قربه واحوج ما تكون الى بث كوامنها بين ذراعيه ! انه الواجب المقدس ! والواجب اذا الح طيفه غمر كل الأطياف ! وهنا فتح ابراهيم الخرز بيد يربكها الارتعاش وبسط ورقة عريضة أمام نظر الفتاة المتطلع ...

... بات ابراهيم وخطيبته يدرسان تصميم المدينـة ومواقع القلاع والأبواب ، وكان هذا التصميم قد أعده ابراهيم خلال مقامه بطنجة منذ بضعة شهور وهو يذكر أن هنالك بابا سريا في السور الغربي دخل منه احدى الليالي عندما كان يسير في ركب الرحالة الانجليزي الثري ساموبل بيبيس ، وكان الركب قد خرج في الصباح الباكر لزيارة الضواحي المشرفة على البحر فاستوقفته منـاظر خلابة حتـى طلـع الشفق فوجد أبواب المدينة قد أوصدت الا خوخة واطئـة انسلوا منها .. ذكر ابراهيم هذا الرحالة فابرقت اسرته وعادت الى خياله المكدود أشباح تلك الاضطهادات التي تكبدها

اول الأمر عندما كان مشبوها فيه عند الانجليز ولكن عند وصول ساموبل عرف ابراهيم كيف يستولي عليه واصبح دليله الوحيد وهو الذي أملى عليه الكثير مما حرره عن المغرب في مذكراته الخطيرة فحصل على ثقته وثقة سلطات الاحتلال، وامسى يجوب المدينة ويتنسم ويستطلع مسجلا ذلك الى وقت الحاجة ..

كانت هذه الذكريات تجول بخاطر ابراهيم ويطو منكبة على التصميم وقد راعها كثرة القلاع وتماسك الحصون ولكنها ابتسمت ابتسامة عريضة كلها ثقة وايمان عندما تخيلت جيش المغرب اللجب وفتيانه المفاوير من أبناء الريف وحاميات العبيد المنتشرة في قلاع الساحل منتظرة أقل اشارة للتدخل السريع بالمدافع والمجانيق التي يعج بها معسكر ابي الحسن ... ووقع في خاطرها ايضا ما ابداه القنصل الفرنسي جان بيري من اعجاب بالحكمة والنظام في كتائب القائد علي الريفي عندما مر به في طريقه الى مكناس لتقديم أوراق اعتماده الى السلطان . في مثل هذه الذكريات كانا يسبحان وهما يستعرضان فصول التصميم وكانت ذكريات اخرى خاطفة تمر بمخيلتهما لماما لأن دنو الفجر كان يستعجلهما .. وفجأة ترددت اصداء جلجلة اجراس الكنيسة مؤذنة بصلاة السحر فقفز ابراهيم من مكانه وامسك يطو من يمناها وساقها الى دهليز تحت الدرج المؤدية الى السطح ثم صوب نور القنديل الى جهة الجدار ونقر عرض الحائط فاذا اصداء مجرفة تنبعث من وراء الجدار .. نظر ابراهيم الى الفتاة فوجدها تتطلع في تلهف محمر اللحظ من السهاد ، ثم ضغط على زر في اسفل الجدار مغطى بشظايا الخزف وخلقان الثياب فاذا صليل خافت واذا الجدار يتحرك واذا باب ينفتح ليكشف عن سرداب محلولك الجوانب ، ولم يكد الخطيبان يدنيان النور

حتى صاحت يطو من الدهشة أمام ركام من الالغام والبارود غصت به أركان السرداب .. ولم يكن ابراهيم يزيح طرفه لحظة عن ملامح فتاته التي ملكت عليه المشاعر فلاحظ على ضوء الأشعة الباهتة ذلك البريق الذي سرى خاطفا في العينين النجلاوين .. ولو قدر لابراهيم ان يستطلع في هذه اللحظة ما دار بخلد الفتاة من خواطر لارتاع من جرأتها ولهاله أن تفكر حبيبته في الاستهداف لأخطار من هذا العيار الذي يفوق ما يمكن ان يتحمله الجنس اللطيف ، ولكن بنات الأطلس والريف اللواتي يعشن في الهواء الطلق ويعالجن ليل نهار صنوفا من الأشغال المرهقة منذ غضاضة الاهاب لا يمكن ان تعترض المخاوف طريقهن اذا عقدن العزم الصميم ، على ان يطو كانت مثالا نادرا للبطولة والتضحية اذ بالرغم عن سنها التي لم تتجاوز الثمانية عشرة كانت عاطفتها الوطنية تتأجج لتصهر في أتونها ما قد يعلق بالقلب من باقي العواطف ولو أن حبها لابراهيم كان يفوق ما يتصوره الفكر..

اندفعت يطو الى داخل السرداب بعد ان مسكت بيسراها القنديل وطفقت تتحسس عيار الالغام ثم ارتدت الى الوراء وابراهيم مشدوه من آثار الانفعال التي هزت كيان الفتاة بمجرد ما وقع نظرها على محتويات السرداب ...

ثم التفتت الى ابراهيم وخاطبته بلهجة تخللتها حدة وصرامة : « ابراهيم .! ان الفجر على وشك الانفلاق وان ساعة التضحية الكبرى قد ازفت فلتتحمس ولتثق بأن الله لم يخذل قط مستبسلا يستعذب الموت ابتغاء رضاه ، ولتثق ايضا بأن سيف الحمام لا يفمد الا في جوف من يروعهم شبح الحمام لان الموت يخاف من الابطال ... وقد آن لنا ان

نفترق من جديد ليعمل كل في ناحية .. ولعل خروجنا الان من المدينة لم يعد ضروريا بعد الذي رايته في مستودعك من مفرقعات .. سأذهب انا الى حيث تقرر لي ان اذهب ولتذهب انت بهذه الالغام الى المواقع الحصينة لتدسها خفية بين الاعشاب ، وموعدنا وقت الانفجار الذي هو احد ما اصطلحت عليه من شارات مع قائد الجيش للايذان بالساعة المناسبة للهجوم .. ان المفاجأة يا ابراهيم هي خير سلاح نعتمده لطرد هؤلاء الدخلاء عن مدينتنا العزيزة فان طعمناها بالاستماتة وعرفنا كيف نستغل الرعب الذي تستثيره المباغتة في نفوس الحامية الانجليزية فان صفوفها ستنخرم وستسقط الحصون من تلقائها في قبضتنا ، ولكن هات ما عندك من اصباغ وثياب لأتنكر فاني اخشى ان يعرفني نوتية المرسي الذين يتعقبون آثاري الآن بعد الريبة التي زجها في نفوسهم فراري خلال الظلام .. »

وبعد ما تزيت يطو بزي شاب انجليزي امرد انعطفت مليا الى زاوية الفرفة تصلي ، ثم خرجت تعدو في غبش الغلس .

في قبضة العدو

.. خرج ابراهيم يتسلل والصبح لم ينبلج بعد وكانت الأزقة مقفرة الا من حرس متناوم يذرع الشوارع ذهابا وجيئة في تثاقل يلفه برد قارس وضباب كثيف ما لبث ان انقلب الى رذاذ مسترسل ، وكان ابراهيم يسير في ازقة محلولكة لا يكاد

يتبين ما على حافتي الرصيف من دكاكين ودور .. ومن رآه على هذه الحالة وهو يحمل سلة تحقق انه ذاهب الى السوق لابتياع قوت اليوم كما يعمل صغار المحترفين قبل ان ينصرفوا الى اشغالهم . ولكن السلة كانت تحتوي على شيء حسبما يظهر من احديداب ظهر الرجل الذي ناء تحت عبئها الثقيل وابراهيم لم يكن بالرجل الذي ينوء تحت عبء عشرات الارطال .. فهل يتظاهر بالهرم والاحديداب ليخفي هويته ؟ لا ! لأنه لم يكن متنكرا بل حاسر الراس في زيه العادي .. لعل في السلة ما يجمع بين الدقة والثقل .. كان السكون ضاربا اطنابه في انحاء المدينة الهاجعة لا تقطعه سوى تحيات يتبادلها ابراهيم بين الفينة والفينة مع حارس منعزل يصوب نور قنديله الى وجه ابراهيم للتأكد من هويته ثم لا يلبث ان يعود ادراجه وديع النفس هادىء البال ومن يا ترى يمكنه أن يشك في ابراهيم الذي كانت أبواب الأبراج والقلاع لا تغلق في وجهه ثقة به واطمئنانا اليه ..! اليس قد برهن في فرص مريبة على انه الرجل الوديع الذي لا يكاد يفارق منزله الا ليقضي مآربه المتواضعة . والواقع ان ابراهيم كان يرتعش لا عن هلع ولكن خوفا على فتاته السمراء التي ذهبت حيث لا يدري ! ولم يكن ليجرؤ على محاولة ثنيها عن عزمها ولا اقناعها بالبقاء بجانبه لأنه يخشى نظراتها الحادة وغضباتها الباردة ويخشى ان تتهمه في نفسها بالتقاعس والجبن ، والحبيب يجهد نفسه في تجنب أي موقف من شأنه ان يثير في نفس حبيبته شعورا بالاحتقار او ما يشبه الاحتقار ..! بل ان الرجل الجبان لينقلب اسدا هصورا اذا لفحه الحب ونفحه الهوى ليسمو في عيني حبيبته !

كان الفتى يتجه قدما رغم غبش الغلس يتحسس طريقه في غير تردد وكان يسير في اتئاد لا يلوي على شيء ! قطع

الشوارع والأزقة فوجد نفسه أمام مرج واسع عبره كاللمح ليصل الى سوق سامق تعلوه ابراج وتتخلله حصون وكان النور يرتجف من خلال نوافذ احد هذه الأبراج ويتراءى من بعيد .. فلم يسع ابراهيم الا ان ينعطف لناحية اخرى من السور ليدس محتويات سلته بين ثقوب فاغرة غير نافذة من جسم السور المتقادم ، ثم عاد ادراجه متسللا خلال الضباب وقد انتصبت قامته واستقامت مشيته واتسعت خطاه وظل يتنقل على هذا المنوال بين حافات السور الى أن انقشع الغبش وكثرت حركة الغادين والرائحين فرجع الى منزله بعد أن عرج على الناحية الغربية من السور حيث لاحظ وجود منفذ واطىء تتخلله الأعشاب لتخفيه عن الانظار ولم يكن يعلم بوجود هذا المنفذ الا الخاصة من الجنود وقد اطلع عليه ابراهيم عندما رافق الرحالة الانجليزي ساموبل ...

.. وفي الوقت الذي كان ابراهيم يتنقل بين السور والدار حاملا سلته الدقيقة الثقيلة كانت يطو قد وصلت الى الميناء فتراءت لها أشباح السفن راقصة فوق الماء والرصيف مدلهما مقفرا . ثم توقفت كأنها تبحث عن شيء وطال توقفها حتى طرقت مسمعها المرهف نقرات حذاء حديدي تتجاوب لتقطع السكون الرهيب .. وكانت خافتة أول الأمر ولكنها ما لبثت أن تضخمت فظهر شبح طويل القامة قد التف في عباءة من الصوف الرقيق . لم تتبين الفتاة وجهه فلم يسعها الا أن تنحاز خلف كومة من خشب غير انها سمعت نحنحة من ورائها فوقف شعرها وانتفض جسمها وخشيت ان يدهمها طيف ثان وليس امامها مكان تأوي اليه ولكنها كانت رابطة الجاش قوية الفؤاد حاضرة البديهة فانعطفت في اسرع من اللمح لتختفي وراء ركام من الحدائد والحبال ، ولم تتنبه خلال الظلام الى عمود كان ممتدا في عرض طريقها فسقطت

على الأرض سقطة عنيفة رن صداها في دوي ضخمه السكون .. انبطحت يطو فوق الارض والدم يقطر من ركبتها والعرق البارد يتصبب من جبينها وعيناها تجولان خلال الظلام ...

ثم انبعث أمامها عملاق متزمل في فرو من الحرير وتبعه من الجهة الأخرى الحارس الذي كان يتردد صدى خطاه فوق الرصيف .. ولم تكد تعرف هوية العملاق حتى جمد الدم في عروقها واطبق الألم الممض عينيها النجلاوين في غيبوبة .. وصل الرجلان فاذا جثة ممددة فوق الرصيف الذي بللته قطرات الرذاذ مغمضة الجفن واذا السروال مضرج في دم لا يزال سخينا .. ولم يكد العملاق ينظر وجه يطو حتى انتفض من مكانه ومال اليها ليحملها بين ذراعيه وهو يستغرب وجودها على هذه الحال بعد أن تركها قبل منتصف الليل فوق فراشها الوثير !

وبرد قارس تتخلله ريح تحمل في طياتها بلل البحر ، ولكن صهيل الخيل كان يتصاعد بين الفينة والاخرى فيخرق السكون ويتردد صداه في سهول مترامية وهضاب قفراء . . . ومع ذلك فان من اصاخ بسمعه يتبين انغاما متساوقة تنبثق من حلوق صافية تتجاوب في تؤدة واتزان ، ومن سار بضع خطوات داخل المعسكر لاحظ خيمة ضخمة فاخرة تتوسط سهلا مخضر الأعشاب ولاحظ على احد مصاريع الخيمة اناء من النحاس القاني قد اعتلى « مجمارا » تشبه أثافيه الثلاث قوائم اللقلاق رقة واستطالة ، وكان البخار يتصاعد من ثنايا الاناء مؤذنا حلوق المسمعين الجافة بالبشرى والهناء . . ثم اديرت كؤوس الشاي الذي كان المغرب قد استورد من ورقه الأخضر كميات طائلة منذ شهور من بلاد الانجليز قبل ان يصدر المولى اسماعيل الأمر باجلاء حاميتها عن طنجة المغربية فتضخمت أصوات تلحن بردة البوصيري احتفاء بربيع الأنور شهر المولد النبوي الشريف .!

كان الجيش قد سئم هذا الحصار الطويل الشاق وقد تيقن ابو الحسن قائد « المحلة » أن تطويق المدينة على هذا الأسلوب لن يجدي ما دامت الحامية تتلقى المدد على طريق البحر وما دام المولى اسماعيل قد اصر على مهاجمة المدينة من البر لأن قطع المغرب الحربية الست في شاغل ضد الاسبان كما أن المراكب القرصانية السبعة كانت مرابطة في مرسى سلا في استراحتها السنوية . . فقرر القائد ايفاد يطو لتنفيذ خطة سرية دبرها مع قواد « الرحي » وكان يعلق على هذه الخطة أهمية كبرى ويأمل ان تؤدي الى خضد شوكة الانجليز وبث الرعب في صفوفهم . . ولكنه كان بين الخوف والرجاء لانه لم يكن موقنا بأن يطو قد وصلت سالمة الى شاطىء النجاة حسبما حكاه له النوتي الذي رافقها خلال الليل الى مدخل

المرسي حيث قذفت بنفسها بين الأمواج .. وقد اراد ان يتيمن بالمديح النبوي فجمع حوله قواد المئات وبعض ابطال الجيش للانصات الى المسمعين وقتل الوقت بكؤوس الشاي . وكانت أعز ساعة لدى هؤلاء الجنود الروافة هي تلك التي تجمعهم حول صينية مفضضة مترعة الكؤوس بالماء الاصفر الحلو .. فعمد ابو الحسن الى تحريك هممهم التي جمدها طول الانتظار وامتداد الحصار بالنغم المشجي والكأس المباح .. ولكن المدقق في ملامح القائد كان يلاحظ أثر الاهتمام متجليا في شرود النظر الذي يتخلله لمعان اللحظ وتجعد الأسرة وكثرة الحركة ، كأن خواطر ذات خطر تلح على ذهنه المكدود فتطوح به الى حيث لا يرى المسمعون ولا المنصتون، غير أن حاشية القائد كانت تعلم بواعث هذا الاهتمام فكان افرادها يتلمسون محاذاة رئيسهم بين آن وآخر للاسرار اليه بشيء فيبسم القائد تارة ويعبس اخرى .. وكان هؤلاء القواد ينسلون احيانا فرادى أو جماعات خارج الخباء لتوزيع الأوامر وكانت تعقب خروجهم حركة غير عادية في انحاء المعسكر .

.. انقطع المديح وانتصب القوم لاداء فريضة العصر ، ثم انفض الجميع بعد ان أشار القائد الى بعض خاصته بالمكث فظلوا يتداولون مدة طويلة كان أحد رؤساء الفرق يتسلل خلالها للاتصال بمختلف قواد الرحى والمئات ..!

ها هي الأشعة الصفراء قد مالت الى المغيب مؤذنة بالاصيل وها هو الضباب قد انقشع والريح قد هدأت .. وقعت فجأة داخل الجيش حركة غير اعتيادية فأسرجت الخيول وتدرع الفرسان والتأمت الفصائل ، وكان عامة الجنود يستعدون وهم لا يدرون السبب الداعي الى هذا الاستعداد وانما هي تعليمات صدرت بأخذ الأهبة وانتظار

الطوارىء .. ولم يكن القواد قد افضوا بعد الى الجند بالغاية من هذه الحركة الحثيثة والتأهب المستعجل لأنهم لم يكونوا موقنين بوصول جاسوستهم الى الميناء وتمكنها من الاتصال بابراهيم .. وقد انتظر ابو الحسن عودتها طول الصباح . وبعد الزوال ساوره القلق ثم الح عليه ، ولكن بقيت لديه نقطة وحيدة علق عليها كل أمله ، وها هو الأصيل قد اصفرت أشعته ولم تبد بعد أية بادرة من وراء السور .. كان ابو الحسن يتتبع قرص الشمس وهو ينحدر الى المغيب فيزداد اضطرابه كلما ازداد هذا الانحدار .. وبينما كان يذرع الأرض في انفعال ظاهر اذا بدوي انفجار يتردد صداه قاصفا كالرعد ، واذا بدخان يتعالى من جوانب السور في أعمدة تصاعد الى عنان السماء فأسرع ابو الحسن كاللمح لامتطاء صهوة جواده ، وهرول القواد نحو افراسهم المطهمة وتقلد الجند البنادق ونقلت المدافع والمجانيق الى ظهور الخيل وتهافت المشاة نحو السور شاهرين السلاح مهطعين الرؤوس يتقدمهم قواد الرحى .. وما هي الا لحظة حتى كانت عشرات المئات من فتيان الريف قد أحاطت بالاسوار فصارت تصوب نيران مجانيقها الى الأبراج فلا يجيبها من وراء السور مجيب لأن الهلع أخذ بتلابيب حرس السور بعد الانفجار المباغت فأطلقوا سيقانهم للريح ...

الابراج والحصون وهرج الناس ومرجهم تسمع له ضوضاء تتجاوب مع اصداء مدافع ابي الحسن التي بدات تقصف احد اركان السور .. وفيما كان فتيان الريف يحاولون التسلق من جانب السور الذي تحجبه بعض الأشجار عن العيون ، اذا برجل ينبعث من الناحية الغربية مهرولا نحو ابي الحسن وهو يلوح بكلتا يديه والحماسة تهز منه الكيان والعواطف تكاد تتدفق من محياه فيعتلج من وقدها الجنان ويتلعثم اللسان ، وكان يسرع ويشير للجنود بيمناه الى الناحية التي جاء منها .. ولم يكد يرمقه ابو الحسن حتى تبين هويته فتحركت لحيته البيضاء طربا لرؤياه واشعت عيناه سرورا بالظفر القريب ... ولكن الساعة لم تكن ساعة استسلام للانفعال .. فلم يلبث ابو الحسن علي الريفي ان اتجه كالبرق وهو يقفز على متن جواده قفزا الى الركن الغربي للسور واذا باب واطيء قد انفتح على مصراعيه ، ولكنه لم يكد ينزل من ظهر الفرس ويلقي نظرة خاطفة من خلال المنفذ حتى اجفل وتراجع امام جثتين هامدتين تضرج مدخل السور بدمها القاني السخين .. ثم وصل الشاب الذي كان يشير بيده (ولم يكن غير ابراهيم خطيب جاسوستنا السمراء الذي تركناه اول النهار ينقل الالغام في سلته الدقيقة ليدسها في اسفل السور) . وكان يلهث من العدو لأن الفرسان وفي طليعتهم ابو الحسن كانوا قد سبقوه فاستحث خطاه للالتحاق بهم قبل ان يتنبه الانجليز للمنفذ المفتوح فيوصدوه وتذهب كل الجهود ادراج الرياح !.

.. كان ابراهيم قد قضى عشيته على احر من الجمر انتظارا للساعة الحاسمة التي كان يترجاها ويعد لها العدة منذ شهور ، ولم يفتر جسده عن الاضطراب طوال العشي واعتورته الهواجس وخيل اليه ان القوم سينتبهون الى ما

دسه لهم من مكيدة فاستبطأ الاصيل وهو الوقت الذي يأوي فيه الجند الانجليز الى ثكنتهم فترة من الزمن للاستجمام وشرب الشاي ، وهي عادة لا يتخلف عنها افراد الشعب الانجليزي لأن الذ ساعة عندهم هي تلك التي يعود فيها رب العائلة الى منزله فيجتمع هو وذووه حول ابريق من الشاي القاني السخين ويسترسلون في السحر اللذيذ الى ما بين مغيب الشمس وبزوغ الشفق ...!

اصطكت اجراس الكنيسة فجاة فدق بجلجلتها قلب ابراهيم في نبضات متدفقة وسرت في جسمه قشعريرة وجحظت عيناه في ذهول وهو ينظر الى اسراب الجنود تلتحق في تؤدة واناة بمخادع السمر .. وما هي الا لحظة حتى كانت فسحة الابراج قد اقفرت الا من افراد قلائل تقاسموا انحاء السور لحراستها ، واتجه ابراهيم الى مرحاض بجانب السور وهو يفتعل الهدوء ولم يكد ينفرد بنفسه حتى دس يده في جيبه واخرج زندا قلبه في كفه فابرقت عيناه بوميض لا يشك من رآه انه انعكاسة مكبوتة لذلك الحنق الذي طالما حز في نفس ابراهيم ، ثم اورى الزند وادناه من فتيلة قصيرة كانت تبرز من خلال جحر غير نافذ لتتصل داخله بلفم لا تناله الاعين من الخفاء ، ثم انسل ابراهيم الى جحور اخرى واشعل فتائل اخرى كانت النار تقلص من طولها رويدا رويدا لتقترب من تلك الكرة الحديدية الباردة التي تحوي في جوفها عناصر الدمار .. ابتعد ابراهيم ما امكنه الابتعاد من انحاء السور ثم تسلق كدية اشرف منها على المراكز التي دس فيها الفامه المدمرة .. وكان الحرس يذرعون الارض ذهابا وجيئةمطمئنين وادعين وانحاز اثنان منهم الى جهة المنفذ الغربي حيث كان ابريق من الشاي يضطرب غليانا فوق موقد من الخزف ولكن لم يكادا يرفعان الكأس المزبدة الى شفاههما حتى تعالت

فعقعة من جوانب السور اعقبها في الحين دوي هائل تضعضعت له الاركان ، وتطايرت الاحجار من كل جانب، وارتفع الدخان في الفضاء واصابت الشظايا مقاتل الرجلين فاختلجت الكؤوس المترعة بين ايديهما وجحظت اعينهما من الالم وانقلبا على وجهيهما هامدين في غمرة من الدماء ، وكانت حبات العشر تحلق في الأجواء المظلمة من تكاثف الدخان فلم يكد الجند يخرجون من الثكنات لاستطلاع الخبر حتى هالهم هذا المنظر المرعب وقد ظنوا ان الغبار غبار الخيل وان الفرقعة فرقعة المدافع ، فعم الاضطراب وانفضت الجماعات لهذه المفاجأة المفجعة ، وزاد قصف المجانيق القوم ارتياعا ففر بعض النساء والولدان الى ناحية الميناء وفر في اعقابهم الشيوخ والجبناء من الرجال ، واندفع بعض الجند متعقبين زوجاتهم وقد فقدوا توازنهم من هلع المباغتة . . وكانت ساحة المدينة مقفرة الا من ابطال احتفظوا برباطتهم فقصد بعضهم ابراجا وحصونا منعزلة واشعلوا النار في مستودع المفرقعات ثم انكفؤوا منعرجين على المرسى حيث اكتظت السفن والقوارب بالعجائز والنساء والاطفال .

وفي اسرع من اللمح اهتزت المدينة بدوي هائل جديد . .

قرار حامية الانجليز

لم يكد ابراهيم يوقف ابا الحسن على المنفذ السري حتى اصدر القائد أمره بالكف عن قذف المجانيق وبالتجمع.. وكان اثنان من فتيان الريف قد تسلقا السور بعد عناء وارهاق

فباغتهما الانفجار وهما فوق السور الذي هوت بهم شظاياه الى الارض جثتين شبه هامدتين ، وكان هذا الجانب من السور يحاذي الابراج التي اشعل الجنود الانجليز النار في مستودعاتها بالبارود ، وهنا تراجع الجيش المغربي بضع خطوات الى الوراء وجازف ابو الحسن صحبة ابراهيم ليطل من خلال المنفذ الفارغ فاذا الساحة قفراء خالية واذا اعمدة اللهب والدخان تتصاعد من الحصون ملتهمة ما في داخلها من اثاث .. وكانت السن اللهب الحمراء تتعالى افقيامتحدية حمرة الغروب وظلام الليل يستحث خطاه كانه يخشى ان تسبقه سحب الدخان فتلف المدينة في كفنها المدلهم .

جو مثلج يخنق الانفاس، وسماء متلبدة بغيوم اصطنعتها الاعمدة السوداء المتصاعدة من اركان المدينة المهدمة ، وانين موجع يتعالى خافتا ليخرق السكون الرهيب الذي اعقب دوي الانفجارات .. تبادل ابو الحسن المشورة مع حاشيته فقر الراي مؤقتا على الانتظار الى الصباح خشية المكيدة ، فارتجل الجيش معسكرا في العراء واوقدت النار للاصطلاء وبقيت ثلة من الجند على باب المنفذ السري تراقب ما قد يجري داخل المدينة ..

ثم استفسر القائد عن حال الجند وسال هل اصيب احد بسوء ؟ فاخبر بان اثنين من الفتيان قد اصيبا فنقلا في الحين الى خيمة ام هانيء حيث تسهر عليهما الممرضات .. وكانت بالمعسكر الاول خيمة واطئة ضمت زهاء العشرة من النسوة والفتيات اللواتي يتطوعن للسهر على من يجرح من الجند تحت اشراف عجوز عركتها الاعوام وحنكتها تجارب عقود من السنين قضتها في مزاولة العقاقير والاعشاب والضمادات.. ثم خف ابو الحسن لعيادة الجريحين فاذا احدهما مسخن في حالة النزع ، واذا الآخر قد تماثل للقيام حيث لم يصب

الا برضوض خفيفة .. وقد تبين القائد هوية الجريح الاول فانتفض واغرورقت عيناه بالدموع لانه عرف فيه الفتى المغوار اخ بطو المغراوية .. عاد ابو الحسن وهو يرتبك في خطاه من الانفعال والتأثر حتى وصل الى المكان الذي تجمع فيه القواد واذا هم في نقاش حاد .. انفمر معهم في الجدل فقر راي الاغلبية آخر الامر على الدخول الى المدينة بوسيلة من الوسائل وعلى استئناف قصف المدافع ، وقد خشي القواد ان تظن الحامية الانجليزية ان الجيش المغربي قد تراجع اثر انفجار الابراج فتتجاسر على الاقتراب من السور لتوثيق الاقفال واحكام الايصاد .. انبرى ابراهيم ورجا من ابي الحسن ان ينتظر فترة وجيزة ريثما يدخل الى المدينة ليرى هو نفسه ما يجري ، فانسل في الحين من المنفذ بين ثنايا الظلام حيث توارى شبحه بين الدخان الذي كان لا يزال متصاعدا ولم يكد يسير بضع خطوات حتى لفحه شواظ من الحرارة فكر راجعا يتحسس جوانب السور وطفق يجس بكلتا يديه ما على الجدار الضخم من نتوء وغور حتى وصل الى باب مصفحة بالحديد يتوسطها قفل يكاد طوله يعادل نصف القامة ، ثم طرق مسمع الجيش صوت صليل حاد انفتحت الباب اثره على مصراعيها فاندفع ابراهيم وهو ينادي ابا الحسن في صوت متحمس هدجته الغبطة والسرور ، وفي الحين تحرك الجيش ليدخل على بركة الله في جنح الظلام الدامس الى المدينة العزيزة التي طال حصارها ، حتى كاد اليأس يجرف بالقلوب ولكن المثابرة والصبر والثبات كفيلة بتحقيق كل نجاح ! هنا هزت الفتيان نخوة ذرفت بها الدموع فتشنجت الاعصاب ووقف الشعر وارتجفت الافئدة بلذة النصر وتعالت الاصوات بالتكبير وبحت الحناجر بالدعاء لسليل الرسول وقامع الاعداء وموحد الصفوف ومحرر الوطن المولى اسماعيل .. ترك ابو الحسن الجند يعسكرون داخل المدينة

المفتحة الابواب وذهب ليبحث عن ابراهيم فوجده يعانق بعض ذويه وقد ظهر السرور على محياه ، وكان النور المنبعث من النيران الموقدة يضيء جوانب المعسكر فيحسب من قد يختلس النظر البعيد من الاعداء ان اسوار المدينة قد انقلبت ابراجها الى ركام من نار ! اسرّ ابو الحسن في اذن ابراهيم شيئا فاضطرب هذا اضطرابا قطع عليه تيار حماسه وكأنه تذكر بايعاز القائد شيئا فظهر على ملامحه بريق كأنه بريق هيام ، واعتلجت عيناه بومضة تمخضت عن دمع حاول ابراهيم كبته عبثا .. وقد سرت ايضا قشعريرة في جسم ابي الحسن لانه خشي ان يكون قد اصاب يطو سوء ، ولكن عندما علم ان هذه فارقت ابراهيم لمواصلة مهمتها ، عادت الطمأنينة الى نفسه وترقرقت في عينيه دمعة اعتزاز واعجاب بهذه البطولة الخارقة التي تمثلت في انوثة يطو الوادعة .. يطو التي يحبها كابنته لأنها تربت في حضنه منذ نعومة الأظفار .. يطو التي تتجشم الاهوال لتشارك بجانب اشقائها في تحرير اجزاء الوطن المحتلة .. وكأن ابا الحسن داهم ذهنه خاطر اسود فاربدت اسرته وتجهم محياه فسار ويده في يد ابراهيم الى خيمة ام هانىء حيث كان الحسن المفراوي يلفظ نفسه الأخير ، فلم يتمالك ابراهيم عن البكاء حزنا على رفيق الصبا واشفاقا على خطيبته النائية .

*

خـلال الانقاض

ظلام دامس وضباب متراكم وانداء تبلل الهواء الرطب وسكون تتخلله انفجارات تدوي بين الفينة والفينة من بعض

اركان طنجة فيرددها هدوء الليل في طقطقة صاخبة .. لم يكد ينتصف الليل حتى خمدت المشاعل التي كان الجند يصطلون بها في معسكر ابي الحسن .. واستنام الاعياء والاجهاد معظم الجيش وباتت ثلة من الحرس تتناوب في المراصد المشرفة على المدينة تتحسس ما يجري ، وكان السكون المخيم على انقاض المدينة يزيد في رهبة الليل البهيم فتتخايل للانظار المحمومة من الارق اشباح تتراقص فوق الانقاض في همس صامت ، وكان يتعالى بين آن وآخر صهيل او نحنحة خافتة تنبعث من خيام ما زال يتراءى من خلال سدي وبرها المهلهل نور ذابل يرتجف ارتجاف قلب ابي الحسن عندما يدوي انفجار تضخم صداه ذبذبة الهدوء .. نعم ، كان القائد ابو الحسن يتضور على فراشه المرتجل البسيط وقد جافاه النوم واعتورته الهواجس .. « ماذا يكيد العدو يا ترى في هذه الآونة ؟ ما هذه المفرقعات القاصفة ؟ هل يعمل الانجليز على تدمير المدينة بعد ما ارغموا على الجلاء عنها ؟.. لا بد ان اعرف ولكن كيف الوصول الى جهة المدينة وشواظ اللهب ما زال يلفح الجو بسمومه الحار والدخان ما زال يخنق الانفاس؟ وهذه الحلوكة المدلهمة كيف السبيل الى اختراقها بقناديل لا يكاد نورها يغالب فورة الريح الباردة التي تهب من البحر؟. آه لولا هذه الانداء التي تبخرت بقطرات الماء عند اصطدامها بالحرارة المنبعثة من الحرائق لامتدت السنة اللهب على مستوى الرياح .. » .. بهذه العبارات كان يهجس ابو الحسن وهو على أحر من الجمر استبطاء لفسق الفجر ولكنه نفث عنه الغطاء وتزمل في عباءة من صوف وانسل الى خارج الخباء ليرى ما يكون .. واذا اثنان من قواده يتجاذبان الحديث مع احد الحرس ملوحين بالايدي الى جهة المرسى التي بدات تموج بحركة غريبة وتعج بأصوات مريبة .. ولم يكد القائد ابو الحسن يشعر بذلك الارتجاج المتصاعد من ناحية البحر

في مزيج من النحيب المكبوت والنداءات المتتابعة حتى نادى احد الحراس وامره باحضار ابراهيم وبعض الفتيان ممن لهم معرفة بالمدينة ومنعرجاتها ، فغاب الرجل لحظة ثم رجع ليخبر بانه لم يعثر لابراهيم على اثر .. فتملكت ابا الحسن الحيرة ولم يدر ماذا يفعل .. وفيما كانت تحدثه نفسه بالانسلال الى داخل المدينة لاستطلاع سر القعقعة الموصولة اذا بشبح ينبعث من خلال الظلام ماسك بتلابيب شبح آخر اضخم منه بدنا وقد اوثق يديه وراء ظهره بطرف عمامة ..! اجفل ابو الحسن اول الامر ولكنه تماسك عندما تبين نبرات ابراهيم خلال ظلام حال دون رؤية ملامح الشخص الموثق الذي كان يزمجر في رطانة مقعرة ويحاول التخلص من قيود تشنجت من ضغطها اطرافه .. دعا القائد فتاه ابراهيم للسير في اعقابه الى مرصد الحراس حيث حكى ابراهيم انه غادر المعسكر حين شعر بخشخشة وشاهد شبحا يتسلل بين الانقاض نحو الميناء فلم يتمالك عن تعقبه بعد ان تقلد بندقية اختطفها من الحارس وتركه جامدا في مكانه من الدهشة، ثم ما لبث ان اختلط بالظلام في الطريق التي انسل منهاالشبح المتجسس .. وكان ابراهيم يتلمس مواقع خطاه في احتراس وحذر لأنه خشي ان يقع قدمه على موطىء لا يزال به اثر اللهب او ان يحدث بوقع اقدامه على الثرى جلبة تنبه الى وجوده .. وكان يسرع في مشيته رغم الحلوكة لان معرفته بمنعطفات المدينة ومنعرجاتها سهلت عليه ذلك .. واصل سيره في اتجاه غير معين ، وكانت اقدامه تتجه به في غير وعي نحو الحي الذي قطنه بضعة شهور .. وصل الى ذلك الحي بعد فترة غير قصيرة قضاها وهو يهرول محدقا ببصره المكدود في قطع الظلام واذا الشبح قد وقف على مدخل الدرب الذي كان يسكن فيه ، فانحاز ابراهيم كاللمح الى جهة الجدار وطفق يراقب ذلك الشبح الضخم الذي كان يقدم رجلا ويؤخر

أخرى في حيرة ظاهرة ولم يكن قد تبين شخصه لفرط الظلام .. ثم قر راي الطيف على شيء فتوغل داخل الدرب ثم توقف في منتصفه ليتحسس في الجدار الأيمن منفذ احد المنازل .. وجمد الدم في شرايين ابراهيم وتصبب العرق من جبينه فابتل برشحاته ثوبه الشفاف .. ما هذا ؟!.. ان الشبح يحاول اقتلاع قفل باب الدار التي يسكنها هو اي ابراهيم..! وفيما كان الشبح يجهد نفسه لفتحها انهال عليه ابراهيم بضربة من مقبض بندقيته فترنح وسقط صريعا على الارض .. ثم قدح فتى الريف زندا اشعل به فتيلة مبللة بالزيت كان يوفرها في جيبه للطوارىء ، فانقدح نور باهت ادناه من وجه الرجل الصريع ليعرف هويته واذا شيخ مكتنز قد تجعدت اسرته وجحظت عيناه واصفر شاربه من أثر التبغ الاسمر .. كان الشيخ قد فقد وعيه من جراء الضربة التي كالها له ابراهيم فوق الناصية الصلعاء ولكن نفسه كان يتردد في هدوء .. سل ابراهيم خنجرا مدسوسا في منطقة الشيخ وطرحه فوق الارض وبعد هنيهة افاق الجاسوس المتلصص من اغماءته فوجد نفسه مكتوف الايدي ثم رفع يده الى ناصيته بصورة آلية ليتحسس أثر الضربة الموجعة وكان يرتجف ارتجاف المقرور ..!

استمع ابو الحسن الى هذه القصة الغريبة ثم امر ابراهيم ان يحتفظ به الى الصباح بعد ان حاول عبثا الاستفسار عن حاله ، وكان ابراهيم ينظر الى ملامح الشيخ المتألم فتشع في مخيلته ذكريات غامضة .. لقد سبق له ان رأى هذا الوجه ولكن اين ومتى ؟ انه لم يره في طنجة ولكن في غيرها منذ شهور .. انه لم يكن في مدينة القصر فهل رآه هناك ؟ وفجأة اتضحت الذكرى في ذهن ابراهيم فعرف فيه يهوديا كان يستبيع خلقان الثياب وجاهزات الحدائد في

أزقة القصر الكبير .. انه هو .. لا شك انه هو ..! فمـا هو سر وجوده بطنجة في هذا الليل البهيم وسط الانقاض؟ واغرب من ذلك انه ضبطه وهو يحاول فتح باب منزله، فهل كان مختفيا بطنجة مطلعا على علاقته بجيش المغاربة وبشخص ابي الحسن على الخصوص ؟؟..

*

كانت الفتاة باهتة اللون غائرة العينين محمرة الاحداق ملتهبة الوجنات كأن الجهود الخارقة التي بذلتها حتى اليوم اثاقلت بعبئها المرهق دفعة واحدة على هذا الجسم البض النحيل.. ومع ذلك كانت يطو مشرقة المحيا وخاصة الجبين متلألئة القسمات غبطة وحماسا ، وكيف لا .. وهذا الجلاء هو نتيجة لعامل المباغتة التي احكمت تدبيرها بمعونة خطيبها المفوار .. ولم تكد الفتاة تستحضر في ذاكرتها المكدودة من الارق صورة ابراهيم حتى اغرورقت عيناها بالدمع لانها تصورت مبلغ ما سيدهمه من ألم ويأس اذا ما لاحظ غيابها الذي ربما طال الى ما لا نهاية له ...

ولكن يطو تمالكت بما جبلت عليه من رباطة واتزان واستسلمت للعناية الالهية التي لا يمكن ان تخيب الابطال والمجاهدين .. ولكن ما هذه الكآبة التي ترتسم على محيا الفتاة بين آن وآن ؟ اهي ذكرى خطيبها الملحة ؟ أم هو فراق الوطن المحرر الى اسر طويل سيعوقها عن اتمام مهمتها في اصيلا والعرائش ؟ أم هو تضايقها من العملاق الموله الذي يجثو امامها في ذل وانكسار ؟ الواقع ان تلك العوامل اعترضت حماس الفتاة الغامر لتنغص عليها لذة النصر التي لم يقدر لها ان تستمرئها بجانب اخوانها من المواطنين ، ولكن قسماتها ما لبثت ان انفجرت لتفتر شفتاها عن بسمة الزهو المثمل ! اليست قد شاطرت الرجال في مهمة مقدسة هي تحرير جوهرة غالية في عقد هذا الوطن ؟ وكانت نفسها التي يفمرها التفاؤل تحدثها بأنها ستتخلص من هذا الأسر طاهرة نقية من لوثة الانظار الجشعة المصوبة اليها . ان الموت لأهون من ان يلتاث شرفها المصون .. ثم ابرقت اسرتها وسرى في عينيها المحمومتين ايماض غريب . وكان العملاق لا يزال جاثيا امامها وقد اكتنفته الظنون من تسللها الى الرصيف خلال الليل بعد

ما تركها وادعة فوق فراشها الوثير وافضى اليها في تلعثم بقلقه ، ولكنها طمأنته مؤكدة انها خرجت لتتنشق الهواءالعليل بعد ان امضاها السهاد ولكن عندما سمعت وقع الخطى هلعت واغمي عليها .. والصب الموله كثير الهواجس ولكنه سهل الانقياد سريع التصديق .. كانت معدات الجلاء قد أوشكت على التمام فخطر ليطو خاطر هبت الى تنفيذه في الحين لأن مزاجها الحار وروحها المتوثبة لم يكونا يسمحان لها بالتردد بعد ان يقر رايها المتزن على شيء .. همهمت باللغة الاسبانية مخاطبة الربان الذي كان يرنو اليها ويقلق من اعراض الحمى التي تلهب جسمها المهزول فلم يفهم شيئا ، ولكنه هب من مكانه وهرع الى الباب ليبحث عن الشيخ الأصلع الذي ترجم بينهما في أول المساء والذي عرفت فيه يطو عندما لمحته خلال الظلام وهو يتجرع الغول في مرصد الحراسة ـ يهوديا ـ شاهدته في مدينة القصر الكبير .. وقد ارادت الفتاة ان تضرب عصفورين بحجر واحد .. تثأر من هذا الجاسوس الخائن وتستغله لابلاغ الجيش خبر أسرها ، حتى لا يظن ابو الحسن انها ذهبت ضحية الانفجارات او ابتلعتها الامواج. وفيما كان العملاق يبحث عن اليهودي انسلت يطو من الفراش وأوصدت الباب ثم تناولت قرطاسا سطرت عليه بانامل مرتجفة بضع كلمات ثم دستها في منطقتها وعادت متوانية الى السرير بعد ان فتحت الباب، ولم تكد تندس تحت الغطاء الصوفي الدافىء حتى دخل الشيخ في أعقاب العملاق وفي يده كاس من عصير العنب ... خاطبت الفتاة اليهودي بكلمات اقتضبتها اقتضابا بلهجة اسبانية مفخمة فاربد وجهه وارتعشت فرائسه وادار وجهه نحو العملاق ليخبره بأن الفتاة ترجو منه ان يذهب الى ما وراء الرصيف ليبحث لها عن صليب من ذهب هو تذكار من امها العجوز يعز عليها ان تفقده .. وقد سقط من نحرها بعد ان أغمي عليها خلال الظلام . وقد اختارت يطو

الصليب على غيره في اختلافها الماكر لتوهم الربان انها اسبانية مسيحية عليه ان يوصلها الى الشواطىء الاسبانية وينزلها هناك ، وكانت تود ان تسترجع حريتها ولو بين اثباج الموج. لم ير اليهودي بدا من تنفيذ امر الربان الذي اوعز اليه بالاستعجال ثم رجت يطو من الشيخ ان يدنو لتبين له المكان بالضبط ، وكانت تتصنع الوهن وخفوت الصوت فدست في جيب صدريته الورقة التي كتبتها ، وصادف الحال ان العملاق كان قد وقف ليقفل نافذة الغرفة وان الشيخ اعتراه ذهول من هذا التداني المفاجىء فهرع اليهودي الى الرصيف وقطعه كاللمح متواريا في ثنايا الظلام، وبدلا من ان يبحث عن الصليب الذي جاء من اجله اتجه نحو المدينة الهادئة من خلال ازقة ضيقة لم تمسها النار ، وكانت عيناه تومضان ببريق المكر والدهاء وقد سبق ان لاحظ شابا في موكب الرحالة ساموبل ولاحظ حركاته المريبة وقبوعه المسترسل بمنزله الصغير بأحد دروب المدينة ولم يكن قد عثر له على اثر بين القوم المتجمعين فوق الرصيف او على متن المراكب فتحقق لديه ما كان يعتوره من ظنون في شخصه ومن شكوك في علائقه بالقائد ابي الحسن، لا سيما وانه ضبطه مرة وهو يرسم على ورقة عريضة خطوطا هندسية بعد ان يمعن النظر في وضعية الاقلاع والابراج .. لم يبق لديه شك في ان ذلك الفتى الذي لم يكن سوى ابراهيم خطيب يطو هو من عيون ابي الحسن وانه التحق بالجيش المحاصر للمدينة او مات تحت الانقاض ، فسرى في لحظه بصيص الطمع وحدثته نفسه بالاجهاز على منزل ابراهيم لاختلاس ما قد يكون فيه من مال، وقد حسب اليهودي ان رجلا كابراهيم يتعيش وهو يرتع في البطالة لا بد ان يكون ثريا يختزن ثروة مهمة .. ولكن لم يكد الشيخ يفتح باب منزل ابراهيم حتى انبعث هذا الاخير من خلال الظلمة الدامسة وانهال عليه بضربة فوق

ناصيته الصلعاء ثم قاده مكتوفا الى معسكر ابي الحسن كما
راياه قبل .

*

حيرة ابراهيم

.. زج ابراهيم بأسيره اليهودي المتجسس في غياهب احدى الخيام ريثما يطلع فجر الغد وكلف بالسهر على حراسته جنديا بعد أن سرح يديه المكتوفتين ، ثم انكفأ راجعا الى خبائه ينتظر انبلاج عمود الصباح ، وكان جسمه النحيل ينتفض انتفاضا تحت قميصه الصوفي الغليظ الذي استبدله ببزته الانجليزية المضايقة لمفاصله واطرافه فاندس تحت الغطاء فوق سرير مرتجل ، ولكن جوانحه استمرت تصطفق واسنانه تصطك كأنه تحت وابل من الطل القارس . وكانت حدقته محمرة من السهاد وجسمه مرتخيا من الانحلال ومن رآه على هذه الحال حسبه محموما ولكن لم يكن لا هذا ولا ذاك ، وانما هو الارتياع على مصير خطيبته يطو هز كيانه المكدود هزا عنيفا ، وكأن الأرق قد جهد غدة الدمع في مآقيه فاستحالت الغدة الى غصة وقفت في حلقومه حشرجة خانقة .. والدمع اذا انهمر انسكب معه تيار الاشجان والويل كل الويل لمن نضبت مآقيه في غمرة الأسى فما أشبه الدمع بتلك الجرعات التي يتناولها المغصوص لدفع ما ارتكم في بلعومه من الشجى..!

تلفف ابراهيم تحت ركام من الأغطية الثقيلة فدفئت اطرافه بعض الشيء ولكن قلبه ظل يرتجف بين جوانحه ويقذف في عروقه بدم بارد لا يلبث أن يشيع في انحاء الجسم قشعريرة

لاذعة .. كانت شتى الهواجس تتنازع ابراهيم فترسم في روعه تخيلات سوداء فيزداد اضطرابا .. وكان هذا الوجه الشاحب الباهت يحمر بين آن وآخر حتى ليظن الناظر أن اعراض الحمى تنتابه بغتة لتصبغ وجنتيه بهذه المسحةالقانية ولكن ذلك الاحمرار لم يكن سوى احمرار الخجل ! خجل ابراهيم من هذا الارتعاش وهو البطل الذي تصمد أعصابه في حومة الوغى لنائبات القتال فما أكثر ما جابه الموت بقلب ثابت وفؤاد صلب فماله ينتفض الآن انتفاض العصفور عندما يدهمه القطر بعيدا عن عشه الدافىء ؟ أهو الحب يفعل هذه الأفاعيل ؟ أم هو الفراق يشيع في القلب هذه الفورة القارسة وفي الاطراف هذا الاضطراب ؟ كان هذا الحب ، فما أعظم اذن صولة الحب !!

بات ابراهيم يتضور على فراشه بين محموم ومقرور وعيناه تعتلجان وفؤاده لا يفتر عن الخفقان وهيكله يكاديذوب من الانحلال .. واخيرا طرق سمعه المرهف همس الجنود في حركتهم لاستئناف العدة للهجوم فنفث الغطاء وانتصب وعيناه تومضان ببريق لماع وكأن ذلك الانحلال قد استحال في أسرع من اللمح الى تدفق وحيوية واندفاع . ماذا !؟ هل تأهب الجنود اثار في نفسه ذكرى الفتح وقرب الانتصار بعد ان أسلمه هدوء الليل ووحشته الى الهواجس ؟ أم هزه التفاؤل بسنوح الفرصة للبحث عن الحبيبة التي قد تكون مختفية في ناحية من نواحي المدينة ؟ انه يعرف طبيعة يطو ويعلم ان روح المغامرة تستولي أحيانا على فكرها فتذهلها عن مواقف الخطر وكأن الفتاة تتحرق الى خلق المناسبات لتزج بنفسها في المغامرات ! وكم من نفوس جياشة لا تستطيع أن تستمرىء الهدوء وتتملى بالوداعة والسكون فاذا أعوزتها المغامرات خلقت دواعي المغامرات ، غير ان يطو لم تكن تماما من هذا القبيل لأن عاطفتها الوطنية المتأججة وصلابة

عودها هما اللذان كانا يحدوانها الى تجشم اصعب المسالك للوصول الى شاطىء النجاة اعتقادا منها بأن الوسائل الكبرى هي اضمن عوامل النجاح ! وهي طبيعة نادرة ولكنها ليست بالغريبة عند فتيان وفتيات الأطلس والريف الذين الفوا المركب الخشن والعيش المتوثب في اتون الشمم والانفة والاباء .

تحرك الجيش للدخول في غبش الغلس واندفعت المئات من الجنود المغاربة الى داخل المدينة تتلمس المسلك بين الانقاض المتراكمة ، وكان ابراهيم يسير في الطليعة ذاهلا كالمأخوذ وهو يقلب نظره ذات اليمين وذات اليسار في حيرة واندهاش ، وكيف لا يحار ويندهش وقد بحث عن اسيره في جوانب المعسكر فلم يجد له اثرا .!! كانت صدمة زادها شدة ما عثر عليه ابراهيم في جيب الصدرية التي تركها الشيخ الأصلع بعد أن احتال على الحارس المتناوم وكال اليه ضربة على راسه اردته صريعا فوق الارض ثم خلع عن الصريع جبته الصوفية وتنكرها فاستطاع الانسلال الى خارج المعسكر ! ان ابراهيم يرتبك في مشيته ويجر خطاه جرا متثاقلا كأن اليأس اخذ بتلابيبه ولكنه يغالب هذا اليأس الذي ولدته في نفسه كلمات مضطربة رسمتها يطو على عجل في الورقة التي وجدها ابراهيم في صدرية الشيخ .. اهو رسول أوفدته يطو للاخبار بأسرها وباستعداد الحامية الانجليزية التي اسرتها الى الجلاء قبل طلوع الفجر ؟ أم ان للصدفة يدا في وصول الرسالة ؟ وكيفما كان الحال فقد انهال ابراهيم على نفسه باللوم العنيف على عدم تشديد الحراسة وندم على عدم المبادرة بتفتيش الشيخ وتركه ذلك الى الصباح، فلو كان بادر بذلك لعثر على الورقة ولأجبر اليهودي على الكلام ولهب الى انقاذ خطيبته من هذا الأسر ، ولكنه القضاء ولا مفر من القضاء ! على انه

لو علم ذلك لتعذر عليه انقاذها خلال الليل وهو لا يعرف مقرها ولو كان جازف بهذه الصورة لوقع في الأسر وتعذر العمل على انقاذ يطو .. ثم اختلج قلبه واشرق وجهه فجأة وسرى في عينه ايماض خاطف عندما حدثته نفسه بأن وجوده حرا طليقا في هذا الانتصار الذي سهر الليالي في التمهيد له سيتيح له أن يعمل لانقاذ يطو التي خيل اليه انها استنجدت به في تلك الرسالة المقتضبة ! والحبيب المولّه تشتبه عليه معاني ما يصدر عن حبيبته فيقرأ بين السطور ويعمد الى ابعد التأويلات .. نعم لقد استقر في ذهن ابراهيم أن خطيبته قد استنجدت به لانقاذها من الورطة التي وقعت فيها فتجدد فيه العزم وتحركت نخوته وغاب عن ذهنه كل شيء الا صورة خطيبته المأسورة التي يجب أن يتجشم كل صعب في سبيل الوصول اليها ...!

نعم سيفتنم عطلة الاستجمام بعد هذا النصر الباهر على الانجليز للبحث عن يطو حيث كانت ولو في اغور بلاد الانجليز التي يعرف كثيرا من مدنها، ولكنه الآن أشد ما يكون توقا الى ضبط الشيخ الأصلع لاستنطاقه عله يهديه الى ما يسهل عليه البحث !! كان ابراهيم يناجي نفسه بهذه الخواطر المرتبكة وهو يسير في مقدمة الجيش حتى بلغ رصيف الميناء .. واذا هو خال مقفر الجوانب والموج يرتطم في هدوء بالصخور الضخمة الرابضة ربض ابي الهول منذ اعرق الأجيال . وكان ابو الحسن يوزع الجنود على المراكز لتنحية الانقاض ويمشي على حذر مخافة أن تكون بين الانقاض الغام مدسوسة .. ولشد ما كانت دهشة ابراهيم عندما شاهد قرب الرصيف جبة صوف أشبه بالتي يلبسها جنود ابي الحسن ..

*

يطو في احتفال النصر

كان المركب يمخر عباب البحر متأرجحا بين امواج هادئة وكان ظهر هذه السفينة القرصانية غاصا بالنوتية بين مضطجع يغط في نوم عميق وواقف يعمل في تناوم والتعب قد اخذ بتلابيب الجميع بعد معركة الأمس ، جو هادىء وهواء عليل وسكون لا يخرقه الا تجاوب الأمواج في اصطفاق بعضها ببعض .. بات النوتية الى الهزيع الاخير يقدرون ما سلبوه من غنائم من ذلك المركب الانجليزي الذي ابى ان يستسلم الا بعد ان مات معظم نوتيته تحت نيران المدافع .. وكان من بين الموتى عملاق اشقر اصابته نيران احدى الطلقات وهو يحمل بين ذراعيه فتاة التف حولها القراصنة مشدوهين من جمالها الأسمر الرقيق .

كانت يطو وهي تلك الفتاة ذات الجمال الاسمر لا تزال مستغرقة في النوم ثم افاقت بغتة من سباتها العميق وهي مشرقة المحيا ، مومضة العينين على اثر حلم لذيذ الم بها خلاله طيف ابراهيم وهو يرحب بها وسط الأزهار والرياحين، وكان الشعور بالخجل قد اضفى على وجنتيها مسحة قانية استمرت تصبغ الخدين الاسيلين . كانت معالم السرور بادية على محيا الفتاة وهي بين اليقظة والنوم ولكنها لم تكن تشعر بوضعها داخل غرفة النوم حتى جالت في هذا الوسط الغريب بعينين ذاهلتين .. وفي اسرع من اللمح عادت اليها ذكرى المعركة الدامية التي ذهب ضحيتها قوم كانوا سببا في ابعاد الشقة بينها وبين وطنها العزيز ، وهنا تذكرت خطيبها ابراهيم فتورد خدها واحمرت حدقتها وابرقت اسرتها بوميض الهيام ...!

استرسلت يطو في هذه الخواطر وهي بين اليأس والأمل، وكانت أشعة الضحى قد بدأت تنفذ من شباك كوة صغيرة تطل على البحر ، وفجأة تعالى صفير من وسط المركب اعقبته حركة غير اعتيادية ما لبثت ان انقلبت الى جلبة وضوضاء في ظهر المركب، قامت يطو متوانية وحشرت نظرها الولهان في فصاص الباب علها ترى ما يجري فاذا النوتية في هرج ومرج واذا هم يصوبون مدافعهم الى جهة الافق في اهتزاز عصبي شديد .. لم يسع الفتاة الا ان تفتح الباب لترسل نظرها الى الناحية التي كانت الاصابع مصوبة اليها والاعناق تشرئب للتطلع الى باخرة ضخمة تسير في هدوء .. ولم تكد يطو تلمحها حتى اختلج قلبها بين جوانحها المكدودة وسرى في نفسها تيار حار ارتجت له مفاصلها غبطة وأملا .. شاهدت رغم البعد نوتية مغاربة بصدرياتهم الحمراء ورؤوسهم المعممة يصوبون المجاهر الى جهة المركب ، ولم يكادوا يدركون انه مركب قرصاني حتى اشار الرئيس الى الربان فلوى مقود السفينة التي انطلقت تعدو كالقنبلة نحو المركب القرصاني البرتغالي الذي تجرأ على الاقتراب من ميناء سبتة المحاصرة من طرف جنود المولى اسماعيل ...

وفي أسرع من اللمح تصادم المركبان وانطلقت المدافع ولف الدخان الاسود السفينتين فاختلت الطلقات وتداخل المركبان واختلط نوتيتهما في معركة التحمت فيها السيوف والسواعد المفتولة ، وانقطعت المدافع فجأة عن القصف لأن الطلقات لم تكن تصوب الا للبحر على اثر مناورة انعطافية مال بها المركب المغربي الى الخلف لينقض وسط حلوكة الدخان على نوتية تضعضعت صفوفهم غب مفاجأة قاسية ، ثم هدأ كل شيء وانقشع الدخان عن نوتية مصفدين واخشاب مقوضة

وجثث غارقة في غدير من الدم، وكانت يطو قد عادت الى غرفتها تتجسس مواقع الخطى في انفعال شديد بعد ما مرت بازائها رصاصة كاد تيارها يصرع جسدها المهزول وكان هذا التيار خرق صماخها فلم تعد تسمع الا طنينا يتردد صداه صاخبا في نفسها المهتاجة .. استولى النوتية المغاربة على المركب القرصاني فاوثقوا القراصنة الا طائفة فضلت الحرية بين اثباج الموج فقذفت بنفسها في الماء لتحاول السباحة الى شاطىء النجاة البعيد ..

*

عاد المركب المغربي في الاصيل يجر وراءه سفينة القراصنة بمدافعها النحاسية التي بلغت الاربعين، وما ان وصل الى ميناء طنجة حتى خرج الجنود وفي طليعتهم ابـــو الحسن لاستقبال النوتية الظافرين . وكان ازاء القائد علي الريفي فتى ذابل العينين ، شاحب المحيا ، ذاهل النظر ، حائـر الطرف ينظر ولا يرى ويسمع ولا يعي . نزل النوتية الـى الرصيف يجرون وراءهم الاسرى راسفين في الاغلال، فتلقاهم القائد بابتسامة وادعة ثم ابرقت عيناه عندما لحظ بين النوتية قامة اختلج لمرآها فؤاده ... لقد حدثته نفسه بهويتها ..

وكان ابراهيم لا يزال بجانبه منذ هل اللحظ مصوبا نظره نحو موكب الاسرى الموثقين والنوتية. واذا به يرتجف فجاة وينتفض انتفاضة المقرور ثم يسقط على الارض مغمى عليه ... سارت يطو في خطى متئدة نحو القائد فسلمت عليه في خفر ووقار ثم

مالت نحو خطيبها الذي اغمي عليه لمفاجأة اللقاء ..! استرجع ابراهيم وعيه تدريجيا حتى افاق فوجد يطو تدنو اليه في حنان وهيام .!

طبعت الفتاة على جبهة ابراهيم قبلة حارة اقشعر لها بدنه ثم خاطبته قائلة :

« عزيزي ابراهيم ، لا تنس ان العرائش واصيلا لم تحررا بعد ، وانني اقسمت يمينا لأحرمن نفسي طعم الهوى ما دامت هاتان الجوهرتان في قبضة الاسبان . »

*